بسم الله الرحمان الرحيم

كلمة السيد عميد الكلية مدير المجلة

أ. د. أحمد صاري

هذا هو العدد الثاني من مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، يصدر بعد العدد الأول منذ ما يقارب العام تقريبا، وقد كنا نود أن يصدر هذا العدد منذ عدة شهور خلت، لكن رغبتنا في المحافظة على المستوى العلمي للأبحاث والدراسات التي تنشر بالمجلة دفعتنا إلى التريث قليلا، وبالتالي تأخر هذا العدد ليصدر في شهر محرم من سنة 1424 هـ، مع مطلع العام الهجري الجديد مثله مثل العدد الأول الذي صدر في محرم من السنة الماضية، فلعل هذا يكون مؤشر خير.

ومما شجعنا على المضي في إصدار هذا العدد وزادنا ثقة ردود الفعل الإيجابية بعد ظهور العدد الأول والاستقبال الحسن الذي لقيه.

وبالرغم من أن طموحنا في الرقي بهذه المجلة إلى الأحسن شكلا ومضمونا يزداد من يوم إلى آخر، فإن هذا العدد قد حضي بالعديد من الدراسات والأبحاث التي تنوعت ما بين التاريخ والأدب واللغة. وما ميز هذا العدد أيضا احتواءه على بحثين أحدهما باللغة الإنجليزية والآخر باللغة الفرنسية، ونهدف من وراء هذا إلى فتح المجلة على شريحة أوسع من القراء والباحثين وإلى إمكانية تبادلها أيضا مع المكتبات والجامعات الأوروبية.

وعلى الله قصد السبيل

قسنطينة في 10 صفر 1424/ 12 أفريل 2003

الجديد عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر وقسنطينة.

د. أحمد صاري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله في مقدمة الجزء الثالث من كتابه **تاريخ الجزائر الثقافي** الصادر سنة 1998[1]:"والمؤلف لا يزعم أنه أحاط بكل ما تناوله من معارف على حد سواء، وأنه خبير بكل موضوع تعرض إليه. فقد توقفنا عند مسائل عديدة إما لعدم توفر مادتها أو لعدم اختصاصنا فيها، ولكن حسبنا أننا مهدنا الطريق أمام الباحثين الذين نتمنى أن يواصلوا ما بدأناه أو أن يصححوا ما أخطأنا فيه." وهو الخطأ الذي وقع فيه فعلا د. سعدالله عند حديثه عن زيارة محمد عبده لقسنطينة، حيث يقول : "كان الشيخ عبده قد زار قسنطينة زيارة خاطفة ثم رجع إلى الجزائر. ولم يكتب أحد حتى الآن، حسب علمنا، عن زيارته لقسنطينة، ونظن أن أحد مستقبليه هناك قد يكون الشيخ المولود بن الموهوب وحمدان التونيسي. وكان ابن الموهوب من المعجبين بالشيخ عبده ..." [2]. فمن خلال هذا

المقطع يتبين لنا مدى الغموض الذي مازال يكتنف زيارة محمد عبده إلى الجزائر العاصمة بشكل عام وزيارته إلى مدينة قسنطينة بشكل خاص، بالرغم من مرور قرن من الزمن على هذه الزيارة.

وهذا الأمر لا يخص د. سعد الله فقط وإنما أغلب من كتبوا عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر، فمنهم من لا يذكر حتى مجرد زيارته إلى قسنطينة، ومن ذكر منهم ذلك لم يتعد مجرد الإشارة إلى هذه الزيارة أو يقوم بنقل معلومات غير صحيحة عنها. وقد يعود السبب في ذلك إلى أن زيارة محمد عبده إلى الجزائر بصفة عامة والى قسنطينة بصفة خاصة قد اتسمت بالطابع الخاص أو لنقل أنها كانت "شبه سرية". ذلك أنها لم تلق العناية من طرف الصحافة، بالرغم من شهرة الرجل الذي كان يعتبر آنذاك أكبر شخصية دينية في العالم العربي الإسلامي. وقد يعود السبب في ذلك إلى أن الإدارة الاستعمارية أرادت أن لا تعطي لهذه الزيارة صبغة رسمية، وهو الشيء الذي جعلها تمر دون أن تثير اهتمام سوى فئة ضئيلة من النخبة الجزائرية آنذاك. ولذلك لم نعثر لها على أي صدى في الجرائد الأهلية أو الفرنسية الصادرة في ذلك الوقت، حتى أن أهم كتاب أرخ لسيرة الإمام محمد عبده وهو **تاريخ الأستاذ الإمام**"[3] لتلميذه رشيد رضا لم يشر إطلاقا إلى الزيارة التي قام بها إلى قسنطينة أثناء زيارته إلى الجزائر وتونس. وقد تكون كل هذه الأسباب وغيرها هي التي جعلت زيارة محمد عبده إلى قسنطينة يحيطها الكثير من الغموض. وعكس ذلك فإن زيارته إلى تونس قد لقيت اهتمام الصحافة، خاصة جريدة **الحاضرة** [4] التي غطت برنامج زيارة محمد عبده منذ بدايتها في09 سبتمبر إلى غاية 24 ديسمبر1903. فهل يعود سبب ذلك الاهتمام إلى اختلاف الوضع السياسي ما

بين الجزائر وتونس وطول الفترة التي قضاها عبده بتونس أم إلى شهرة هذا الأخير في الوسط التونسي، الذي كان قد تعرف عليه أثناء زيارته الأولى التي دامت من 06 ديسمبر 1884 إلى جانفي 1885 [5].

وإذا كانت زيارة محمد عبده إلى مدينة الجزائر قد لقيت عناية العديد من الباحثين وأظهرت بعض التباين في تقييم آثارها، فإن زيارته إلى قسنطينة ما زالت مجهولة حتى عند الباحثين، اللّهم إلا البعض منهم الذين أشاروا إلى موضوع تنقله إلى قسنطينة. وقد يعود السبب في اهتمام الباحثين بزيارته إلى العاصمة دون قسنطينة إلى اعتمادهم على أهم مصدرين وهما جريدة **المنار وتاريخ الأستاذ الإمام** لصاحبهما رشيد رضا اللّذان تطرقا إلى زيارته لكل من الجزائر العاصمة وتونس دون الإشارة إلى تنقله إلى قسنطينة. ومن الدراسات الأولى التي اهتمت بزيارة محمد عبده إلى الجزائر بحث علي مراد **تعاليم محمد عبده السياسية للجزائريين (1903)** [6] الذي نشره سنة 1963، بعد مرور ستين سنة على هذه الزيارة، وهي الدراسة الأولى من نوعها التي اهتمت بزيارة عبده. وقد تضمنت مدخلا طويلا بيّن فيه الباحث بروز عبده كشخصية دينية وسياسية في مصر ثم ظروف التقائه بجمال الدين الأفغاني وتجربتهما الصحافية في باريس مع جريدة **العروة الوثقى** [7]. ثم تطرق إلى الظروف التي تمت فيها هذه الزيارة، التي جاءت في وقت كان فيه عبده قد تولى أهم المناصب الدينية "وتمكن من أن يصبح بالفعل السلطة الإسلامية التي يُسمع إليها أكثر في المشرق" [8] ثم عرج الباحث على ظروف استقباله في الجزائر وناقش تعاليمه الدينية والسياسية التي أوصى بها نخبة من الجزائريين من مستقبليه وزواره. وما يهمنا هنا هو أن علي مراد لم يتطرق ولو بالإشارة إلى زيارة محمد عبده إلى قسنطينة. وقد

يعود السبب في ذلك إلى اعتماده بالخصوص على جريدة **المنار** وكتاب **تاريخ الأستاذ**.... كما أن الجرائد التي كانت تصدر في بداية القرن، والتي كان بإمكانها أن توفر له مادة خبرية حول زيارة عبده إلى قسنطينة لم تول أهمية لذلك. فلم نعثر لحد الآن في ملف محمد عبده بأرشيف ما وراء البحار بأيكس أوبروفانس (السلسلة 9H4) عن قصاصات من الجرائد تشير إلى زيارته إلى الجزائر العاصمة فما بالك بزيارته إلى قسنطينة. أما ثاني من تطرق إلى زيارة عبده باختصار فهو شارل روبير أجرون في كتابه **الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919**[9]. والظاهر أن أجرون لم يطلع على دراسة علي مراد السالفة الذكر ولا على جريدة **المنار** أو كتاب **تاريخ الأستاذ**... ولذلك وقع في أخطاء عديدة منها تأكيده على أن زيارة عبده إلى الجزائر جاءت مباشرة بعد زيارته إلى تونس. مع العلم أن العكس هو الذي حدث، فقد توجه عبده من مصر إلى لندن في شهر جويلية ومنها إلى فرنسا يوم 12 أوت ثم إلى الجزائر يوم 27. أما الخطأ الثاني الذي وقع فيه أجرون فهو مرتبط بالأول وهو اعتقاده أن عبده قد زار قسنطينة ثم رجع بعد ذلك إلى الجزائر العاصمة. مع العلم أن الملف الخاص بهذه الزيارة (9H4) والموجود بالأرشيف السالف الذكر والذي اعتمد عليه أجرون قد أفاض نوعا ما في تغطية زيارة عبده إلى الجزائر وقسنطينة. أما دراسة المهدي البوعبدلي "جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده إلى الجزائر عام 1322/1903هـ" المنشورة سنة 1978[10] فلم يشر فيها مطلقا إلى زيارته إلى قسنطينة. وكان غرضه من هذا المقال هو التعريف بمصدر جديد عن هذه الزيارة والمتمثل في الانطباعات التي كتبها عبد الحليم بن سماية[11] أحد مستقبلي عبده بالعاصمة والتي سجلها استجابة لرغبة علي بن عبد الرحمان

مفتي وهران الذي كان عبده قد طلب منه الالتحاق به بالعاصمة، والرسالة عبارة عن رأي ابن سماية في محمد عبده الذي كثر الكلام حوله ما بين مؤيد ومعارض لتعاليمه. أما دراسة رشيد بن شنب "إقامة الشيخ محمد عبده في الجزائر (1903)"[12] فهي عبارة عن رد، وإن كان هذا الرد قد جاء متأخرا، على دراسة علي مراد التي تؤكد على تأثر الجزائريين بتعاليم محمد عبده. وما يهمنا هنا هو أن ابن شنب قد حدد زيارة عبده إلى الجزائر وقسنطينة بالفترة الممتدة ما بين 27 أوت و06 سبتمبر[13]. غير أن هذه الفترة تغطي في الحقيقة زيارته إلى الجزائر فقط، أما زيارته إلى قسنطينة فقد دامت من 06 إلى 09 سبتمبر. وعلى أية حال فإن معلومات ابن شنب لم تتعد معلومات أجرون في ما يتعلق بزيارة عبده إلى قسنطينة عندما يقول بأنه لم يترك مقر مُضيفه ببلكور إلا للقيام بزيارة سريعة جدا إلى قسنطينة[14]. أما آخر من تناول في علمنا زيارة عبده إلى الجزائر فهو أبو القاسم سعد الله في الجزء الخامس من كتابه **تاريخ الجزائر الثقافي**. وما دام أنه لم يطلع على الملف الخاص بهذه الزيارة في الأرشيف ولا على مصادر جديدة فإن معلوماته عن هذه الزيارة لم تتعد معلومات من سبقوه، وكانت غير صحيحة عندما ذكر أن عبده "قد زار قسنطينة زيارة خاطفة ثم رجع إلى الجزائر"[15]. وقد ذكر أيضا كل من أجرون[16] وسعد الله[17] أن محمد عبده قد هاجم في قسنطينة" الطرق المبتدعة والجهل"، وهو شيء غير مؤكد أيضا. فإذا كان محمد عبده قد أصدر هذا الحكم على الطرقية خلال تواجده بالجزائر العاصمة التي بقي بها مدة أطول وألقى بمساجدها بعض الدروس فإن المتتبع لزيارته إلى قسنطينة لا يمكنه أن يستنتج ذلك. كما أن علي مراد الذي اهتم بتعاليم محمد عبده للجزائريين وأطنب فيها لم يذكر

ذلك. زيادة على ذلك فلا أجرون ولا سعد الله يذكران المصدر الذي يكونا قد اعتمدا عليه.

بعد هذه القراءة للكتابات التي اهتمت بزيارة عبده إلى الجزائر والإشارة إلى النقائص التي تضمنتها يجدر بنا أن نذكّر ببعض الحقائق عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر العاصمة والتي لم تتطرق إليها الدراسات السابقة، ثم نلقي الضوء بعد ذلك على زيارته إلى قسنطينة التي لم تلق الاهتمام إلى حد اليوم بسبب نقص المصادر، وعدم الوصول إلى المتوفر منها. وبهذا الصدد ففي زيارة علمية لنا إلى أرشيف ما وراء البحار بأكس اوبروفانس في صائفة سنة 2000 تمكنا من الإطلاع على ملف يخص زيارة عبده إلى الجزائر. وإذا كان القسم الأول منه الخاص بزيارته إلى الجزائر العاصمة لا يشكل أهمية كبيرة بالنسبة لنا نظرا للدراسات التي نشرت حول هذه الزيارة فإن الوثائق المتعلقة بزيارته إلى قسنطينة لها أهمية كبرى لعدة أسباب منها؛ أن هذه الزيارة لم تجذب انتباه الباحثين حتى وإن كان البعض منهم قد أشار إليها. وثانيا لأن قسنطينة كانت في بداية القرن العشرين من الناحية الثقافية والعلمية وحتى السياسية المدينة الثانية بعد العاصمة من حيث الأهمية. وقد تكون زيارة عبده إليها اعترافا منه بهذه الأهمية. كما أن قسنطينة تعتبر بالنسبة للجزائر بوابة الشرق، فمن خلالها وعن طريق تونس، كانت تنفذ إلى الجزائر روح الشرق والتيارات الفكرية والثقافية.

ونظرا لجهل العديد من الباحثين بهذه الزيارة التي مر عليها قرن من الزمن، وتذبذب معلومات البعض الآخر منهم حولها، ارتأينا أن نلقي عليها الضوء في هذا المقال. نظرا إلى المعلومات الجديدة المكملة للدراسات السابقة، والتي استقيناها من

الأرشيف سنبدأ بإلقاء نظرة على زيارة عبده إلى العاصمة بإضافة معلومات جديدة ثم نتطرق إلى زيارته إلى قسنطينة.

محمد عبده في مدينة الجزائر:

على الرغم من أن مشروع زيارة محمد عبده إلى الجزائر وتونس قد بقي في طي الكتمان و لم تعلن عنه جريدة **المنار** كما يقول رشيد رضا "لئلا يبادر الأشرار إلى بث الدسائس لمنع فرنسا إياه من دخول البلاد أو الحيلولة دون ما يريدون منها بعد دخولها، كما فعلوا في سفره إلى الآستانة، حتى إذا ما ذكر الخبر في الجرائد الأوربية نقلته عنها وذكرت أننا كنا نتوقعه كما تقدم آنفا. ولكنه لم يكد يعرف ذلك حتى بادر أولئك الأشرار إلى ما كان ينتظر منهم كما بينته في جريدة المنار."[18]. وبالفعل فقد تلقت مصالح الحكومة العامة بالجزائر بعض الرسائل القصد منها تشويه صورة محمد عبده لدى المسؤولين الفرنسيين. ففي إحدى الرسائل التي عثرنا عليها في الأرشيف وهي مرسلة من الإسكندرية بتاريخ 02 يونيو 1903 من طرف محمد بن مصطفى[19]، الذي نرجح أن يكون من أصل جزائري، حاول فيها صاحبها تشويه سمعة محمد عبده الذي قال عنه أنه "كان هنا في السابق من أكابر حزب عرابي المفسدين ثم حكم عليه بالنفي إلى الشام خمس سنوات وبعدها أرجع ووظفوه المصريين (كذا)...". وبالإضافة إلى محاولة تأليب المسؤولين الفرنسيين ضد محمد عبده فقد ذكر صاحب الرسالة أن هذا الأخير يعتزم زيارة تلمسان أيضا. وبعد أن عزم محمد عبده على هذه الزيارة أتصل بالسيد دو لابولينيار (De la Boulinière)، الوزير المفوض المكلف بالقنصلية الفرنسية العامة

بالقاهرة، ليخبره برغبته في زيارة الجزائر وتونس ويطلب منه مساعدته على ذلك. وقد راسل هذا الوزير كل من الحاكم العام بالجزائر والمقيم العام بتونس (09 جوان 1903) يوصيهما بمحمد عبده ويطلب منهما تسهيل زيارته[20]. وفي رسالة أخرى إلى السيد دولكاسي(T. Delcassé) يخبره فيها بأنه لم يجد مانعا من رفض طلب محمد عبده، ثم يستعرض الظروف التي أوصلته إلى وظيفة الإفتاء ودور كرومر والإنجليز في ذلك[21]. وفي مراسلة من الحاكم العام إلى السيد وزير الخارجية الفرنسي يذكر فيها السمعة التي يتمتع بها محمد عبده في الوسط الجزائري المثقف، وضرورة الحد من الأثر الذي قد تتركه هذه الزيارة على الجمهور الواسع من السكان. غير أن ما كان يخشاه الحاكم العام هو التفسيرات التي قد تعطى من خلال هذه الرحلة من طرف عبده أو من طرف الصحافة المصرية والسورية والتركية حول وضعية المسلمين الجزائريين وهي "الدعاية" التي قد تلقى صدى لها بالجزائر والمغرب[22].

وإذا كانت الدراسات السابقة حول زيارة عبده إلى الجزائر وتونس قد أشارت أن هذا الأخير، وبعد زيارته لإنجلترا في شهر أوت 1903 قد عرج بعد ذلك على فرنسا من أجل الحصول على الترخيص لزيارة الجزائر، فإن المراسلات التي ذكرناها أعلاه تبين أن الاتصالات بين عبده والسلطات الفرنسية قد تمت منذ شهر جوان وأن الضمانات التي ذكرها الممثل الفرنسي في القاهرة قد تكون كافية ولا داعي لاتصال عبده من جديد بالمسؤولين الفرنسيين، خاصة وأنه ليس هناك ما يؤكد أنه اتصل بهؤلاء فعلا عندما كان بفرنسا. ومهما يكن فلولا المناخ السياسي الذي كان سائدا في بداية القرن في الجزائر، كما يقول علي مراد[23]، لما تمكن عبده

من تحقيق مشروعه هذا. وقبل هذه الزيارة بدأت الإدارة الاستعمارية تستنفر قواها، فبمجرد نشر جريدة **الحاضرة** بتونس لخبر زيارة عبده إلى الجزائر وتونس حتى راسل الحاكم العام ولاة وهران والجزائر وقسنطينة(25جويلية1903) يطلب منهم تزويده بمعلومات حول عبده وضرورة تنظيم "حراسة سرية، ولكن يقظة ومستمرة" وإخباره بعلاقاته ومحادثاته مع الأعيان والأهالي في حالة وجوده بمنطقتهم [24].

وقد حل الشيخ محمد عبده بالجزائر يوم الخميس 27 أوت 1903 في الساعة الثانية زوالا قادما من مرسيليا. وقبل أن ينزل ضيفا يوم 29 أوت على السيد مصطفى بن الأكحل، كان قد نزل بفندق الواحات(Hotel L'Oasis). وقد التقى بعد ذلك بالتاجر عمر بن سماية ابن أخ عبد الحليم بن سماية. ومن خلال هذه المعطيات الأولى كعدم استقباله مباشرة بعد نزوله من الباخرة من طرف الشخصيات التي احتفت به فيما بعد ونزوله بالفندق يظهر أن الزيارة كانت تتسم بالطابع السري وبعدم وجود اتصالات بين عبده وهذه الشخصيات قبل ذلك. ونظرا لشخصية الزائر ومكانته في العالم الإسلامي آنذاك فقد أحيط بحراسة ومتابعة خاصة. ويبدو أن هذه الملاحقة قد بدأت منذ ركوبه الباخرة في مرسيليا، وأن لوسياني (D. Luciani) مدير الشؤون الأهلية بالولاية العامة [25] والخبير بالثقافة العربية الإسلامية والتطورات الحاصلة في العالم الإسلامي هو الذي تولى هذه المهمة. ولذلك يحتوي ملف هذه الزيارة بالأرشيف على رسائل عديدة باللغة العربية أغلبها غير موقع، ما عدا واحدة منها ممضاة من طرف الشيخ السعيد(؟). وهذه الرسائل عبارة عن تقارير يومية عن تحركات محمد عبده ومقابلاته مع أعيان العاصمة، خاصة في المساجد. ويبدو أن هذه التقارير أعدت من طرف بعض من كانوا مع عبده في

هذه الاجتماعات، وكلها كانت مرسلة إلى السيد لوسياني. وهذه الرسائل هي التي شكلت مصدرا للتقارير الإدارية التي أعدت في ما بعد. وإذا ما تتبعنا جدول عمل زيارة محمد عبده إلى الجزائر يتبين لنا من خلال التقارير ما يلي: ففي يوم 28 أوت وهو يوم جمعة التقى عبده بابن زكور إمام المسجد الكبير، ثم التقى بالمفتي بوقندورة بمسجد لابيشري. وخلال هذه اللّقاءات أعرب عن نيته في البقاء ثمانية أيام في الجزائر العاصمة، ولم يعلن عن رغبته في التوجه إلى مدن أخرى[26]. ويوم السبت 29 زار المكتبة الوطنية ومسجد سيدي عبد الرحمان. ولما كان يوم الأحد 30 هو يوم عطلة، فالظاهر أن محمد عبده لم يكن له نشاط يذكر، ولذلك خصصه لزيارة بعض الأماكن السياحية بالجزائر العاصمة ولبعض الزيارات الخاصة. ويشير تقرير آخر[27] حول نشاط عبده ليوم 31 أوت أنه التقى بأحمد بن بريهمات المترجم العسكري المتقاعد، وهو من المتجنسين ومن دعاة التفرنس في الجزائر، ويُعتقد أنه كان منخرطا في الماسونية. ولذلك فقد كان حواره مع عبده ساخنا، كما أنه رفض دعوة عمر قلاتي (من تونس) وهو عسكري متقاعد أيضا حتى لا يلتقي مرة أخرى مع بن بريهمات الذي كان صديقا لقلاتي. ويكون محمد عبده قد استفسر خلال هذا اليوم عن الوقت اللازم للذهاب إلى تلمسان، ويظهر أنه تخلى في ما بعد عن مشروع زيارة هذه المدينة بسبب البعد(!). ولكنه أظهر خلال هذا اليوم رغبته في زيارة قسنطينة للبقاء بها يومين أو ثلاثة أيام قبل مواصلة السفر إلى تونس[28]. وفي مساء نفس اليوم نظمت مأدبة عشاء على شرف محمد عبده عند مُضيفه بيلكور السيد لكحل. وقد حضرها أغلب وجوه وأعيان العاصمة ومن مختلف التوجهات؛ المفتي الحنفي أحمد ولد القاضي، حمدان بوالركايب، الحاج موسى، عمر بوضربة،

عمر وأحمد بن بريهمات، عمر قلاتي.... وقد دار خلال هذا اللقاء "نقاش فلسفي" ساخن حول الفكر الحر بين أحمد بن بريهمات ومحمد عبده. والظاهر أن الحضور قد استاء من تصرف بن بريهمات المثير، ولذلك أُستجوب بعنف من طرف ابن لكحل الذي وصفه بـــ"الكافر" و"الجاهل".

وعلى أية حال فالتقرير يشير إلى أن مرور هذه الشخصية الدينية بالجزائر قد أحدث بعض الغليان في الطبقة العليا للسكان الأهالي. غير أن هذا الغليان لم يكن له أي طابع من شأنه أن يقلق السلطات العليا[29]. وفي اليوم الموالي 01 سبتمبر أجتمع ما يقارب 150 شخصا عند السيد ابن لكحل دائما وذلك لحضور سهرة علمية مع الشيخ عبده. وقد حضر هذا الاجتماع أيضا أهم وجوه العاصمة من بينهم: القاضي المالكي، المفتي محمد بوقندورة، بن سيام، علي الشريف (مستشار عام ونائب مالي)؛ عمر قلاتي وأبناء المنصالي. وقد طرحت خلال هذا الاجتماع عدة قضايا تخص قضايا الصيام، الصلاة والحج، وتقرر خلالها دعوة كل من مفتي وهران علي بن عبد الرحمان والحاج موسى وكيل جامع سيدي عبد الرحمان بالجزائر "لدراسة بعض القضايا العالقة التي تخص بعض الممارسات الدينية، والتي يتقرر فيها ما إذا كان بالإمكان اتباع تعليمات محمد عبده"[30]. ويظهر أن عدول عبده في التوجه إلى تلمسان وربما إلى وهران أيضا هو الشيء الذي دفعه إلى طلب مجيء مفتي وهران إلى العاصمة عن طريق مصطفى بن لكحل. ولم تكن هذه الترتيبات خافية عن إدارة الشؤون الأهلية. فسرعان ما كتب مديرها لوسياني إلى والي وهران يوم 04 سبتمبر يستفسره عن دوافع هذه الزيارة وعن كيفية توجيه الدعوة إلى المفتي وكيف كان رد فعله[31]. وفي رده أكد والي وهران أنه استدعى

المفتي هذا الغرض فأكد له أنه تلقى بالفعل رسالة من مصطفى بن لكحل وأنه ليس في نيته التوجه إلى العاصمة، ثم يعلق الوالي على ذلك فيقول "بأن هذا المفتي كان دوما مخلصا لنا وأنه يمكننا أن نضع ثقتنا في تصريحه.."[32] والظاهر أن السبب في عدم تنقل مفتي وهران إلى العاصمة للالتقاء بمحمد عبده يعود إلى سببين أولهما أنه كان تيجاني الطريقة ونحن نعرف العداوة التي كانت بين الطرق الصوفية والحركة الإصلاحية، التي اتهمت هذه الطرق بالبدع والخرافات والاحتيال...غير أن هذا السبب غير كاف لوحده، ذلك أن الشخصيات الدينية والسياسية التي التقت بمحمد عبده لم تكن كلها توافقه الرأي والتوجه، حتى أن فيهم العديد من كانوا ينتمون إلى هذه الطرق. كما أن فيهم من كان متحررا من الدين، مثل حسن بن بريهمات وبن التهامي... ولذلك فإن العامل الرئيسي الذي يكون قد منعه من حضور درس عبده هو الخوف من رد فعل الإدارة نحوه، خاصة وأنه ينتمي إلى السلك الديني الرسمي الموظف من طرف الإدارة والخاضع لإرادتها[33]. وعلى أية حال فقد واصل عبده الأيام الباقية من زيارته في إلقاء الدروس والاجتماع بأعيان العاصمة وممثلي الإدارة كالزيارة التي قام بها إلى السيد لوسياني مدير الشؤون الأهلية.

وعن ردود فعل الجزائريين على هذه الزيارة فقد تعددت ما بين الإعجاب والتساؤل، فمنهم من كان يعتقد انه مرسل من طرف السلطان العثماني للإطلاع على أحوال الرعية في الغرب الإسلامي وعلى مطالبهم. أما عن فتاويه وآرائه الدينية فقد استقبلت بنوع من الغرابة في الوسط الأهلي. خاصة إذا عرفنا أنه أفتى بأكل لحم أهل الكتاب في حالة الضرورة، كما أفتى بعدم تحريم لبس القبعة [34]. وقد ترك

محمد عبده العاصمة يوم 06 سبتمبر في الصباح ليتوجه إلى قسنطينة ومنها إلى تونس.

محمد عبده في قسنطينة:

وعلى عكس زيارته إلى الجزائر العاصمة فإن زيارة عبده إلى قسنطينة لم تلفت الانتباه. ولذلك لم تترك لنا هذه الزيارة إلا بعضا من تقارير الشرطة التي تابعت نشاطه منذ وصوله يوم 06 سبتمبر إلى غاية امتطائه القطار يوم 09 سبتمبر في الصباح. وما عدا هذه التقارير يظهر أنه لا توجد مصادر أخرى تكون قد اهتمت بحلول محمد عبده بهذه المدينة. والأغرب في كل هذا أن صحافة ذلك الوقت بما فيها الأهلية والفرنسية لم تول أهمية لزيارة عبده سواء للعاصمة أم لقسنطينة. ولذلك سنحاول متابعة هذه الزيارة من خلال ما عثرنا عليه في الأرشيف من تقارير للشرطة، وهي على قلتها وقصر الفترة التي قضاها عبده في قسنطينة لا تفي بالغرض المقصود.

فمباشرة بعد وصوله إلى قسنطينة كانت السلطات الأمنية قد كلفت من يترقبه، فقد تم تعيين مفتش وعون أهلي باللباس المدني لمراقبة تحركاته منذ نزوله من القطار واستقباله من طرف موبري خليل بن عمر الدزيري، وهو تاجر له أملاك بالقنطرة، وهو الذي تكلف بضيافته. في بداية زيارته إلى قسنطينة قام محمد عبده ببعض الزيارات لمسؤولي المدينة، دون أن نعرف بالضبط من هم هؤلاء الذين زارهم[35]. كما زار رفقة ابن الموهوب[36] مدرسة قسنطينة[37] وتعرف على ظروف الطلبة بها، ومنها توجه إلى المسجد الكبير وتحدث مع إمامه. ثم زار محمود بن

الشاذلي المدير السابق لمدرسة قسنطينة، كما التقى ببعض وجوه قسنطينة من موظفين ومنتخبين كالقاضيين المالكي والحنفي ومحمد باش تارزي من الملاك، وبن لفقون المستشار البلدي. وقد زار رفقة ابن الموهوب أيضا المكتبة العربية بشارع عبد الله باي، وبقي هناك عدة ساعات. والظاهر أنه كان في كل لقاءاته يؤكد على أطروحته حول ضرورة التمكن من تكوين ديني صلب[38].

ولذلك فإن حمدان الونيسي الذي يظن سعد الله بأنه كان من بين مستقبلي عبده لا نجد له أثرا في تقارير الشرطة. ومن المحتمل أن يكون قد التقى به كالعديد من الناس أثناء تردد عبده على الجامع الكبير أين كان لونيسي يدرس. ويوم 09 سبتمبر في الصباح سافر عبده عن طريق القطار نحو تونس، وكان من بين مودعيه المولود بن الموهوب وموبري خليل الذي تكلف بإيوائه أثناء وجوده بقسنطينة وبعض الملاك الكبار والتجار[39]. وقد استمرت مراقبة تحركات محمد عبده حتى وهو في طريقه إلى تونس. فقد بعث محافظ الشرطة ببرقية إلى كل من رئيس دائرة قالمة ورؤساء الشرطة لوادي الزناتي وقالمة وسوق اهراس يخبرهم بمغادرة عبده لقسنطينة[40]. وحسب تقرير من البلدية المختلطة لسوق اهراس إلى الحاكم العام بعد مرور عبده بهذه المدينة أن هذا الأخير كان سعيدا بزيارته للجزائر[41]. وقد ذكر عبده في رسالة من بالرم (Palerme) في 28 سبتمبر بعد انتهاء زيارته إلى تونس، مرسلة على أكبر تقدير إلى مدير الشؤون الأهلية ـــ ذلك أن عبده لا يذكر دائما بالتدقيق في مراسلاته اسم الجهة المرسل إليها ـــ يشكر فيها الحاكم العام على التسهيلات التي قدمت له في الجزائر وأثناء سفره إلى تونس، ما عدا استيائه من محافظ الشرطة لمدينة قسنطينة الذي يكون قد استدعاه إلى مكتبه وهو العمل الذي

اعتبره غير لائق بشخصه[42]. وعموما فقد صرح عبده عن ارتياحه عما رآه في الجزائر وتونس واعتبر أن ذلك يعبر عن مدى احترام الحكومة الفرنسية للعلم[43]. غير أن هذا الإعجاب من محمد عبده بالسياسة الفرنسية قد دفع بالوطنيين المصريين وعلى رأسهم مصطفى كامل مدير جريدة **اللواء** إلى انتقاده. فهم لم يفهموا كيف أن شخصية دينية من وزن محمد عبده تستحسن سياسة فرنسا الإسلامية التي كانوا يحاربونها منذ سنوات[44].

ومهما يكن فإن الوثائق الجديدة التي اطلعنا عليها وبقدر ما أفادتنا وأوضحت لنا أكثر زيارة محمد عبده إلى الجزائر العاصمة فإنها لم تقدم لنا الشيء الكثير عن زيارته إلى قسنطينة. ذلك أن هذه الوثائق قد تطرقت بالتفصيل إلى إقامة عبده بالجزائر مسترسلة في لقاءاته المختلفة مع علماء وأعيان المدينة ومحادثاته معهم. في حين أنها لم تكن سخية بالمعلومات في ما يتعلق بزيارته إلى قسنطينة، وقد يكون من أسباب ذلك قصر المدة التي قضاها عبده بهذه المدينة الأخيرة.

الهوامش:

[1] أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 590 (الهامش رقم 03).

[2] أبو القاسم سعدالله، المرجع نفسه، ص 09.

[3] محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده**، 03 أجزاء، الجـــزء الأول (1931)، الجزء الثاني (1926)، الجزء الثالث (1907)، مطبعة المنار، القاهرة.

[4] **الحاضرة**: جريدة تونسية أسست سنة 1888 مديرها علي بوشوشة، عملت على توعية التونسيين وتعريفهم بالأفكار العصرية، ولقيت معارضة من الأطراف المحافظة بجامع الزيتونة.

[5] ينظر: Moncef Chenoufi:«Les deux séjours de Muhammad Abduh en Tunisie. » In. **Les Cahiers de Tunisie**, n°61-64, 1968, pp.57-96

[6] Ali Merad:« L'enseignement politique de Muhammad Abduh aux Algériens (1903). » In. **Orient**, n° 28, 4°trim. 1964, pp. 75-123.

[7] ينظر حول هذا الموضوع دراستنا: "العروة الوثقى صوت إسلامي في باريس" **مجلة العلـــوم الإجتماعية والإنسانية**، العدد 05، جوان 1996، ص ص 51-69.

[8] Ali Merad, art. cité, p. 90.

[9] Charles Robert Ageron, **Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919)**, 02 vol., Tome 02, PUF, Paris, 1968, pp. 916-917.

[10] **مجلة الأصالة**، العددان 54-55، فيفري ــ مارس 1978، ص ص 72-88.

[11] عبد الحليم بن سماية (1866-1933) مصلح جزائري من أتباع الشيخ محمد عبده. تولى التدريس بالمدرسة الثعالبية بالجزائر (1896)، ودرس أيضا بالجامع الجديد (1900). مـــن آثاره الكتر المكنون (1913).

[12] Rachid Bencheneb:«Le séjour du Sayh Abduh en Algérie (1903).» In. **Studia Islamica**, LIII, 1981, pp121-135.

[13] Ibid., p. 126.

[14] Ibid., p. 121.

[15] أبو القاسم سعدالله، المرجع نفسه، ص 590

[16] Ch. R. Ageron, op. cit. p. 916.

[17] سعدالله، المرجع نفسه، ص 595.

[18] **تاريخ الأستاذ الإمام**، الجزء الأول، ص ص 87-87.

[19] Archives d'Outre-mer (AOM) d'Aix-en-Provence, 9H4.

[20] M. De La Boulinière à M. Le Gouverneur Général de l'Algérie, AOM, 9H4.

[21] M. De La Boulinière à M. Delcassé, Ministre des Affaires Etrangères. Le Caire, 16 juin 1903, AOM, 9H4.

[22] Le Gouveneur général de l'Algérie à M. Le Ministre des Affaires étrangères, le 23 juillet 1903, A.O.M, F.80: 1816.

[23] A. Merad, art. cité, pp. 92-95.

[24] M. Le G. G. de l 'Algérie aux Préfets d'Alger, d'Oran et de Constantine, AOM, 9H4.

[25] دومنيك لوسياني (D. Luciani 1851-1919) من مواليد جزيرة كورسيكا، بعد دراسته بهذه الأخيرة التحق سنة 1870 بقسنطينة أين بدأ العمل بإدارة العمالة، وقد تولى بعد ذلك إدارة البلديات المختلطة لكل من عين مليلة(1877)، باتنة (1880)، أولاد عطية بالقل (1885)، ثم التحق بالإدارة المركزية بالحكومة العامة بالجزائر. بعد ذلك عين مديرا لديوان الحاكم العام ريفوال (1899). وكان لوسياني أول مدير للشؤون الأهلية (30 ديسمبر 1901).

[26] Préfecture d'Alger. Service des Affaires Etrangères, 29 aout 1903, AOM, 9H4.

[27] Note Sur le muphti du Caire Mohamed Abdou (Rapport anonyme), 31 aout 1903, AOM, 9H4.

[28] المرجع نفسه.

[29] Rapport de la préfecture d'Alger. Service des Affaires Indigènes, Alger le 02 sept. 1903, AOM, 9H4

[30] Le Commissaire de Police centrale à M. Le préfet du département d'Alger, 01 sept. 1903, AOM, 9H4.

[31] AOM, 9H4.

[32] AOM, 9H4.

[33] ينظر:

Azzeddine Ainouche, **l'Administration française et l'organisation officielle du culte musulman en Algérie coloniale (1830-1907)**, 02 vol., thèse Sciences politiques, Aix-Marseille III, 1987, 612p. dacty.

[34] Rapport de la préfecture d'Alger, 07 sept. 1903, AOM, 9H4.

[35] Rapport du Commissaire central de la ville de Constantine, AOM, 9H4.

[36] المولود بن الموهوب(1866-1939) ولد بقسنطينة ودرس على يد الشيخ عبد القادر المجاوي. وفي سنة 1895 تولى التدريس بمدرسة قسنطينة وفي سنة 1908 عين مفتي للمسجد الكبير بقسنطينة كما عين سنة 1926 بمناسبة تدشين مسجد باريس مفتي لهذا المسجد. شارك في النشاط الثقافي والجمعوي الذي عرفته الجزائر في بداية القرن العشرين، ينظر مقالنا: "إبن الموهوب: حياته وقضايا عصره." مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 08، ص ص 186-203.

[37] فتحت سنة 1850 في مقر المدرسة الكتانية التي كان قد أسسها صالح باي. وهي ثالث مدرسة أسسها الفرنسيون إلى جانب مدرستي الجزائر وتلمسان. وتتمثل وظيفتها في تخـــريج الموظفين من قضاة ومدرسين ومترجمين. في البداية تولى إدارة هذه المدرسة جزائريون ثم أصبح يديرها فرنسيون ابتداء من سنة 1883. وقد حولت المدرسة سنة 1907 من مقرها القـــديم بسوق العصر إلى المقر الجديد الذي شغلته الأكاديمية الجامعية للشرق الجزائري لفترة ما.

[38] Ibid.

[39] Le Commisaire central de la ville de Constantine au controleur général des services de police et de sureté à Alger, AOM, 9H4.

[40] Télégramme du commissaire central de Constantine au Sous-préfet de Guelma et aux commissaires de polices de Oued Zenati, Guelma et Souk-Ahras, AOM, 9H4.

[41] A.O.M, 9H4.

[42] Lettre de M. Abduh de Palerme le 28 sept. 1903, AOM., 9H4.

[43] المرجع نفسه.

[44] M. DE la Boulinière à M. Declassé, ministre des Affaires Etrangères, Le Caire 25 janvier 1904, AOM, 9H4.